+ قداس الميلاد

صباح الإثنين في ٢٥ كانون الأول ٢٠٠٠ ترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت اليـــاس قداس الميلاد في كنيسة القديس نيقولاوس في الأشرفية بحضور حشد من المؤمنين. بعد الإنجيل ألقـى سيادته العظة التالية:

«المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرّة.

«الله بعدما كلّم الآباء بالأنبياء قديمًا، بأنواع وطرق كثيرة، كلّمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثًا لكل شيء» (عبر ١: ١-٢).

في القديم كلّم الأنبياء الناس بكلمة الله، والكلمة كانت محفوفة بالمخاطر التـي يتعـرض لـها الإنسان بسبب الخطيئة فيه. هؤلاء الذين أحبوا الله حبًا عظيمًا، الأنبياء، جعلهم الله يحملون كلمته إلـى جميع الناس، هذه الكلمة التي تنقي حامليها وتنقي سامعيها في آن.

الإنسان انحرف عن الطريق المستقيم الذي خطه الله له، وعندما ابتعد عن الله ضاع، تشـوّش فكره وقلبه ووقع في الضلال. ضل الإنسان لأنه أصبح في الظلمة بعد أن ترك النور. هيـأ الله هـذا الإنسان الذي أصبح عنيدًا لا يسمع، والذي أصبح قلبه قاسيًا وذهنه متحجرًا، بتعليم من هنا وتأديب من هناك. أرسل الله أنبياءه لكي يهيئوا الإنسات لتقبُّل الآتي، الذي سيعيد الإنسات إلى صورته السابقة التي خُلق عليها.

خُلق الإنسان على صورة الله. صورة الله هي كلمته، هي المسيح. المسيح «هـو صـورة الله غير المنظور» كما قال بولس الرسول فـي رسالته إلـى أهـل كولوسي (١٥:١). الإنسان خُلـق على هذه الصورة أي خُلق في الأصل ابنًا لله. خُلق على صورة الإبن، على صورة الله، اليوم نعيِّـد لمجيء الأصل، لمجيء الكلمة، لمجيء الكامل الذي يعبّر كليًا عن مشيئة الله بطاعته، نعيِّد للصـورة التي عليها رُسم الإنسان وخُلق. كلمة الله، يسوع المسيح، هو الإنسان الكامل الذي يعبّر عن مشيئة الله تعبيرًا كليًا، وإذا سمعناه لا نسمع سوى صوت الله. في البدء خُلق الإنسان لكي يكون طائعًا لله، صانعًا مشيئته. وقد أمره الله ألا يأكل من الشجرة لكي يرسم له حدًا لئلا يتكبّر ويظن نفسه إلهًا. اليوم نعيِّـد للمسيح الإله الذي تجسد ليعيد الإنسان إلى الطاعة المحررة التي تجعل منه كاملاً، إلهيًا، والتي تجعـل فكره ناصعًا وقلبه صافيًا نقيًا. اليوم يولد يسوع ليكون للإنسان مثالاً وقدوة ونموذجًا. يسوع هو الكلمة التي تعبر، التي تفصح عن الله، إذا رأيناه وسمعناه وآمنا به ندخل في معرفة الله ونتجه نحو الصـورة الحقيقية المستعادة.

يسوع صادق لا يعرف الكذب لذا يجمع بكلمته كل الناس لأنه ولد ليشهد للصدق، للحق، وقـد قال «لا يقدر العالم أن يبغضكم ولكنه يبغضني أنا لأني أشهد عليه أن أعماله شريرة» (يو٧:٧). فـإذا

رأينا يسوع نرى الله كاملاً. عندما قال له فيليبس: «يا سيد أرنا الآب وكفانا قال له يسوع أنا معكم زمانًا هذه مدته ولم تعرفني يا فيليبس. الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤: ٨–٩).

لقد أتى يسوع ليزيل الإنفصام في القلوب والنفوس. معظم الناس نفوسهم مبعثرة، مقسمة، انفصامية، يتكلمون وقلوبهم بعيدة عما تنطق به أفواههم. الإنسان بشكل ما مرائي يتكلّم بأمور شتى وقلبه متجه إلى مكان آخر. اليوم يدعو يسوع كلاً منا أن يوحد قلبه ونفسه، أن يصبح متكاملاً، أن يصبح واحدًا.

فيما أتأمل في هذا البعد أحزن على شعب بلادي وبعض المسؤولين الذين يتكلمون كلامًا لا تقتنع قلوبهم به ويريدون منا أن نقتنع. الكثيرون يتصرفون بلا قناعة بما يفعلون، يتكلمون متملقين، وبكلمة أخرى هم مراؤون. معظم الناس ههنا في بلدي يقولون ويصرحون ويعارضون وقلوبهم في اتجاه آخر معاكس. بلدي يتمزق بسبب الرياء. لو كانت نفوسنا متكاملة واحدة متحدة، لكنا صادقين في كل كلمة نقولها، وكانت كل كلمة تصدر من قلبنا الصافي: «قلباً نقيًا أخلق في يا الله وروحًا مستقيمًا جدّد في أحشائي» (مز ٥٠: ١٠). الكذب من الشيطان ومن يكذب يلتفت إلى الشيطان. كلمة شيطان في اللغة اليونانية تعني من يقسم الناس ويزرع فيهم الشقاق. أما دعوة يسوع لنا، لكل واحد منا، فإلى أن يظهر وجهه الحقيقي عندما يتكلّم. عندما تكلمني أريد أن أراك، أن أرى قلبك ووجهك الحقيقي لا قناعًا. الله يسألنا أن نكون في وحدة مع نفسنا، في تكامل كلي، حتى إذا ما تكلّمنا أفصحنا عن أفكارنا الحقيقية، وإذا ما وُجدنا كان وجودنا إيجابيًا، فعّالاً، مثمرًا. الله يطلب منا أن نكون صادقين لكن ثمار الصدق في حقولنا قليلة جدًا. إذا فتح الله قلوب الناس في بلدي نكتشف أمورًا ما كنا نعرفها، لكننا كنا نظنها.

لقد أتى الله إلينا ليعيد الإنسان إلى إنسانيته، والإنسان حيوان إن لم يكن على علاقة بالله. الإنسان شرسٌ إن لم يكن الله في قلبه. الإنسان قتالٌ إن لم يعرف حنان الله ومغفرته. قصد الخلق وإكليله هو الإنسان الذي خُلق على صورة الله. غاية التجسد أن يُعاد الإنسان إلى إنسانية متألهة، إلى إنسانية واسعة لا فجوة فيها، أرضيتها المحبة الكاملة والشاملة. لقد أتت المحبة إلينا لكي نكون بابن المحبة وارثين الله. نحن نرث المحبة الإلهية في المسيح يسوع. الإنسان المتأله، الإنسان الآدمي حقًا، آدم الأصلي يشبه الإله، أما الإنسان المتعجرف المتكبر المحب لذاته فهم صنمٌ صغير يزول، من التراب هو وإلى التراب يعود. قلبه لا يسكن قلب الله. والله أتى إلينا ليسكننا، ليقطن قلوبنا، لذلك الإنسان الجديد هو مسكن الله. كيف ذلك؟ بالمسيح، لأن المسيح هو صورة الله الحقيقية وبموته أمات الخطيئة بأتعابها وأدرانها وغاياتها.

الإنسان غايةُ الخلق والتجسد، لذا لا نستطيع أن نهمله أو أن نتكلّم كلامًا سطحيًا عنه. كل إنسان مهم كحدقة العين في عيني الوالد والوالدة. كل إنسان عزيز في عيني الرب. فمن أنت أيها الإنسان لتقول إن هذا الإنسان المفقود أو ذاك غير مهم ولا ضرورة للبحث عنه. من أنت أيها الترابي

لتقول هذا القول؟ هل أصبحت إلهًا؟ ولو كان هذا المفقود ابنك ألا تفتش الأرض من أقصاها إلى أقصاها عنه؟ ألا تستعمل سطوتك على كل إنسان لتحصل على معلومات عن ابنك أو على رفاته؟ كل إنسان مخفي أو حاضر مهم جدًا في عيني الله وعيني أهله، وواجبنا أن نعامله على هذا الأساس.

جميل أن نتكلم على الوحدة الوطنية وهذا ما نحتاج إليه، لكننا لا نستطيع أن نتكلم على الوحدة الوطنية وندافع عنها ونحمل سيفها فيما نرسل جماعات تسيء إلى هذه الوحدة وتعرقل مسيرتها. الجماعات المشاغبة لا تعمل من ذاتها، أما الأشباح التي يتكلمون عنها فأنا لا أؤمن بها. أنا أؤمن بالإنسان المسؤول عن صلاحه وعن شره وما يحيرني أن الجميع يبشر بالصلاح والفضائل والمحبة ووحدة الناس في هذا البلد فيما ما يُسمون أشباحًا يبثون جماعاتهم تحت ستر الليل وفي وضح النهار. كلنا، كل لبناني يريد وحدة لبنان فلا يزايدنّ إنسان على آخر. المجرم يُعرف والكاذب يُعرف. «من ثمارهم تعرفونهم» (متى ٧:١٦).

أما عن الإعدام فقد سمعت رئيس إحدى الدول الكبرى يتكلم عن الإعدام وضرورته، والأمر مطروح عندنا. أسألكم بربكم لو كان من سيُنفذ به حكم الإعدام ابنكم هل تتمنون إعدامه؟ أجيبوا بصدق. لا أحد منا بلا خطيئة ولا أولادكم بلا خطيئة لكن هل هذا يبرر الإعدام؟ ولمن يقولون إن الإعدام يردع المجرم أقول لو كان الأمر كذلك لكنا أصبحنا في الجنة بسبب كثرة الإعدامات التي نشهدها. أنا أؤمن أن الإعدام قتلٌ. هذا رأيي ولي الحق بالتعبير عنه. هل أنت من أعطى المحكوم الحياة لتأخذها منه؟ ومن قال لك إنه لن يتوب ويعود إلى ربه؟ ثم ألا تعلمون أن من يفقد ابنًا أو عزيزًا أو حبيبًا يتألم كثيرًا؟ فهل يتمنى هؤلاء أن يتألم غيرهم كما يتألمون؟ أي أم تتمنى لأم أخرى أن تتألم مثلها؟ ام اننا نريد تغذية الحقد بين البشر؟ هذا ليس من المسيحية التي قال سيدها «اغفر لهم يا أبتاه لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لو٢٣:٣٤).

نحن ككنيسة نتمنى استبدال الإعدام بالسجن ولو مؤبدًا على أن يُزار المسجون ويهتم به ويعاد إلى التوبة. يقال إن أمرين ضروريان في السجن أولهما ألا يعطى المسجون أي وسيلة أو مجال ليقتل نفسه والثاني ألا يهرب. هذا يعني أن السجين يتألم في سجنه ويتمنى الموت والإعدام. لكننا نرفض الإعدام رحمة به وبمن يتألم معه.

البعض يقول أن لا مشكلة لديه مع الإعدام. هذا القول مرفوض في بلد كلبنان وليسمح لنا بالتساؤل لو كان المحكوم ابن أحد الزعماء هل يُنفذ فيه حكم الإعدام؟ ألا يجدون له ألف طريقة وطريقة لإخراجه من البلد؟ ثم ألم تدلنا نتائج الحرب التي مررنا بها على من حرر ومن سُجن ومن نُفي؟ وأن من له مكانة معينة أو سطوة مستمدة من الداخل أو من الخارج بإمكانه القيام بما يريد من أعمال مقبولة أو غير مقبولة دون أدنى خشية. وكلنا شاهدنا وشهدنا مآثر هؤلاء، ولم تكن تمارس الأحكام إلا على الفقراء والضعفاء. لذلك أنا أصلّي لابننا الياس لكي يستمر في ما يقوم به من تصرفات مباركة وقد رأينا كيف أدخل البعد الإنساني، الحضاري في ممارسته.

أمر آخر أود لفت النظر إليه. نسمع أحياناً أصوات بعض الغيارى على لبنان الذين يدافعون عن لبنان دون المس ببلدان أخرى. ونسمع ردوداً عليهم من بشر لا نعرف إذا كانون يؤمنون حقًا بالله أو بوطنهم. لهؤلاء نقول ألا يحق للإنسان أن يغار على بيته وعائلته؟ وهل بإمكانك أن تحب أخاك وعائلته أكثر من نفسك وعائلتك؟ أنا لا أقوى على محبة أي بلد أكثر من لبنان ولا يجوز ذلك وإلا فلأترك البلد أو بالأحرى فلأقلع منه. وعندما يعبّر أي إنسان عن محبته لبلده وعن غيرته على وطنه يجب ألا نتساءل من يتكلّم بل علينا سماع ما يقول وإن كان كلامه صحيحًا فلنقل انه صحيح وإن كان خاطئًا فلننبه على الخطأ وإذا تصرفنا عكس ذلك نكون مرائين، إلا إذا كانت الشفاه تنطق بما لا يضمره القلب.

كذلك طالعنا بعض من يدعون الإخلاص للمبادئ والعقائد ان على رجال الدين التوقف عن الكلام وشق الصفوف. من أنت لتمنع عني مواطنيتي ولتدينني وترميني بالتهم وأنا لم أسمعك يومًا تنطق باسم لبنان كما تتغنى بأسماء أخرى. فكيف تسمح لنفسك باتهامي بلبنانيتي والمزايدة علي؟ أنا سأمارس حقي في إبداء الرأي لأنني أخص الله وجوهر رسالتي الحض على الخير والصلاح وانتقاد الشر والخطأ. أنا وعاء خزفي لكن الله رضي أن يبضع كنزه في، وأنا والكنيسة وكل كنيسة وكل إنسان يحب الله، إذا لم تكن لدينا روح نبوية نكون مزيفين، مساومين ومرائين. صوت الكنيسة نبوي وعندما يتكلم بطريرك أو مطران أو كاهن أو علماني أو أي إنسان يحب الله يجب أن نسمع ما يقول. ولمن ينتقد الطريقة أو التوقيت أقول ليس أحد كاملاً لكي علي أن أصغي عندما تتكلّم الكنيسة وتنطق بكلمة الحق. قال يسوع لبيلاطس الذي سأله هل أنت ملك: «لهذا قد ولدت... ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق، وكل من هو من الحق يسمع صوتي» (يو١٨:٣٧).

وإذا كان يسوع صورة الله، إذا كان أيقونة الله، فأنا المسيحي أيقونة يسوع، ومن يراني يجب أن يرى فيَّ صورة يسوع، ويجب أن يرى الحق والنور اللذين أستمدهما من يسوع. بورك إذًا كل إنسان لا يخشى أن ينطق بكلمة الحق، لأن البعض يساوم لأنه يتطلّع إلى مركز ما أو ترقية، أو يخشى على مركزه، لذلك يعتمد الحكمة القائلة: «أمشي مع الماشي». الصديقون قليلون. من يتعاملون بالصدق قليلون. الله كلم أشخاصًا وأوكل إليهم مهمة نقل كلمته بدون تردد. هؤلاء تألموا، «ذاقوا الهزء والجلد والقيود أيضًا والسجن ورُجموا ونُشروا وامتُحنوا وماتوا بحد السيف» (عبر ١: ٣٦-٣٧). لكنهم اعتبروا هذا العذاب المجد الساطع من الله عليهم.

مجيء يسوع دينونة لكل منا. هل أنت ترضي الله؟ يسوع تجسد ليعيدك أيها الإنسان إلى نقائك وليعيد لشفتيك نقاوتهما «إجعل يا رب حارسًا لفمي وبابًا حصينًا على شفتي» (مز١٤١:٣). الله تجسد وولد، تأنس ليتأله الإنسان. ونحن نؤمن أن الإنسان القريب من الله، الإنسان المصلي يحمل الله في قلبه وهو إنسان متأله بالروح القدس الساكن فيه، وهذا الروح «يشفع فينا بأنات لا توصف» (رو٨:٢٦).

يسوع المتجسد يحرركم، ويعلمكم أن من كان تلميذه يتعب ويتألم ويشعر بالوحدة وبأن معظم الناس ضده لأنهم لا يحبون الحق ويرتاحون في الباطل والكذب والرشوة...

دعائي أن يصبح هذا البلد بلد أنبياء لأن من يتنبأ يكلم الناس بكلام يبني ويشجع ويعزي (١كور ١٤: ٣). طوبى لجميع الذين يتكلمون كلام الحق في هذا البلد المحبوب. طوبى لجميع الذين يرمون بالحجارة والكلام الباطل بسبب مواقفهم المحقة، طوبى لجميع الذين يحبون بعد الله، وبمحبة الله، أخاهم الإنسان، ويحبون لبنان، ومن محبتهم للبنان وأمانتهم له نعرف مدى أمانتهم لمن هم خارج لبنان. إن كنت لست أمينًا في بيتك فأنت سارق مزيف في بيتك وخارج بيتك. جعل الله من سكان لبنان بشرًا يقفون مع الحق ولا يخافون، يتكلمون بالحق كالإله الذي انسكب فيهم ولا يخافون. جعل الله من لبنان حديقة تصبح جنة بأخلاق الله وحياة الله وسيرة الله في أبناءه. لبنان لا تُذرف الدموع إلا عليه إذا كان يسكنه بشر معظمهم يحبون التملق والكذب والرياء. في الصدق وحده نجاة لبنان».